الغزو الاسلامي لقبرس

الاستاذ الكبير سعيد عبد الفتاح عاشور المدرس بوزارة المعارف المصرية والمنتدب للتدريس بثانوية النجف . غنى عن التعريف فقد عرفناه كاتباً قديراً واسع الافق سديد البحث .

(البيان)

ظهر الاسلام ، وأخذت الدولة العربية في الاتساع والامتداد في مختلف الجهات ، فلم يأت القرن السابع الا وكانت الامبراطورية الاسلامية قد اتسعت رقعتها وامتدت حدودها الى مسافات بعيدة حتى شملت كثيراً من البلاد المطلة على البحر الابيض المتوسط . على ان اتساع العرب بهذه السرعة ووصولهم الى شواطئ البحر الأبيض ، كان من شأنه ان اوجد امامهم مشاكل بحرية شديدة التعقيد . فالعرب لم يكونوا في يوم من الايام امة بحرية بمعنى الكلمة ، ولم يكن لديهم اسطول يمكنهم من الدفاع عن البلاد التي فتحوها ضد إغارات الاسطول البيزنطي . وقد ادرك العرب خطورة ذلك الوضع ، وضرورة وجود اسطول لهم ، فبدأ معاوية والي الشام في بناء اسطول ، مستعينا بأهالي السواحل الشامية الذين اعتادوا ركوب البحر ومرنوا حياة البحار . « ١ »

ولما كانت جزيرة قبرس عند اتساع الدولة الاسلامية تابعة للدولة البيزنطية ، فانه يجب اولا ان نعرف موقف المسلمين من تلك الدولة لمعرفة الوجه الذي ستكون عليه علاقاتهم بقبرس نفسها . ومن الامور المعروفة انه منذ هب المسلمون للجهاد ، وخرجوا من قلب الجزيرة لتأسيس امبراطوريتهم الواسعة على حساب كل من الدولتين الفارسية والبيزنطية ، وهم معادون للدولة البيزنطية ، ثم ازدادت العلاقات سوءاً بعد ان انتزع المسلمون مصر وبلاد الشام من البيزنطيين واذا كان المسلمون قد سكتوا قليلا عن مهاجمة الدولة البيزنطية عقب استيلائهم على الشام ومصر في اواسط القرن السابع الميلادي ، فليس معنى ذلك انهم طرحوا فكرة الجهاد جانبا ، او انهم ركنوا الى السلم والقنوع بما فتحوه ، او انهم غيروا من نظرتهم تجاه الدولة البيزنطية ، وانما هي طبيعة آسيا الصغرى بجبالها ووعورة أرضها وصحراواتها التي حالت بين المسلمين والتقدم الحربي السريع ، وذلك فضلا عن شعورهم بالحاجة الشديدة الى فترة من الهدوء يمكنون فيها لأنفسهم في البلاد التي تم فتحها .

ولكن المسلمين وقد فتحوا ما فتحوه من البلاد في هبتهم الاولى ، كانوا في حاجة شديدة الى تأمين تلك الفتوحات . ولا يخفى على اي انسان بعيد النظر انه لتأمين بلاد الشام لابد من الاستيلاء على قبرس . وكيف يغفل المسلمون امر قبرس وهي الحصن الامامي الذي لو ترك في يد اعدائهم لكان في ذلك تهديد مباشر لممتلكاتهم الشامية ؟ أجل ، وكيف يغيب عن المسلمين امر الاستفادة من موقع قبرس الجغرافي واستغلالها كقاعدة حربية هامة لمهاجمة البيزنطيين اعدائهم الالداء ؟ لاشك في ان مثل هذه الاعتبارات كان لا يمكن أن تغيب عن بال المسلمين وعلى ذلك لا يصح ان نعتبر تفكيرهم في امر قبرس ومحاولة فتحها أمراً غريباً لم يكن منتظرا فالمتتبع لحركة التوسع العربية منذ خروج العرب من قلب جزيرتهم حتى وصولهم الى شواطئ البحر الابيض ، لابد وان يجزم بأن اليوم الذي سيحاول فيه العرب الاستيلاء على قبرس وغيرها من الجزر القريبة آت لا ريب فيه

وذكر احد الكتاب الاغريق المعاصرين ، ان العرب اغاروا على قبرس لأول مرة سنة ٦٣٢ م تحت قيادة ابي بكر الصديق ، وان ممن استشهدوا في تلك الغزوة ابنه ابا بكر ، ولسنا بحاجة الى التدليل على خرافة تلك الرواية وبطلانها

سلام الله عليك يا أبا الاحرار فلقد ذدت عن الحق بسيفك ، ودافعت الظلم والجور بايمانك ، وقاتلت اعداء الله الكافرين المنكرين للعدل ، السالكين طريق الظلم والعدوان بأهلك وبنيك وعشيرتك وذويك فسجلت بذلك صفحة مجيدة ناصعة يعتز بها احرار العالم على السواء .

هانحن نبكيك ابا عبد الله بالدماء لا بالدموع متوسلين الى الله عز وجل ان يجزينا اجراً بأجر وثواباً بثواب والسلام عليك وعلى اتباعك وانصارك ومحبيك ممن خر صريعاً مستشهداً في ساحة الطف ، سلاماً يجلله الاكبار والاحترام ، ويشفعه الخشوع والاعظام .

علي الخاقاني

« ١ » فاسليف : ص ٢٥٩

اذ لا يوجد في كتب السيرة وغيرها من المراجع الاسلاميه الاولى مايشير ادنى اشارة الى احتمال خروج ابي بكر من الجزيرة العربيـة والقيام بغزوة في قبرس . والقصة كلها فيما يبدو من خيال ذلك الكاتب اليوناني « ١ » .

اما الواقع فهو ان معاوية بن أبي سفيان والي الشام كان اول من فكر في غزو جزيرة قبرس وذلك لتأمين اطراف الدولة الاسلامية من جهة ، والاستعداد لمواصلة الجهاد ضد الروم من جهة اخرى . وقد الح معاوية على الخليفة عمر بن الخطاب في فتح قبرس لشدة قربها وخطرها على بلاد الشام ، حتى انه قال له مرة ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم « ٢ »

ولكن عمر — بما عرف عنه من روية وتأن — لم يشأ ان يغامر بجند المسلمين في البحر ، فكتب اولا الى عمرو بن العاص يستشيره ويسأله ان يصف له البحر فأجاب عمرو إجابة بليغة نصها : [اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير . ليس الا السماء والماء . ان ركن خرق القلوب ، وان تحرك ازاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشدة كثرة . هم فيه كدود على عود . ان مال غرق وان نجا برق] (٣)

فلما قرأ الخليفة كتاب ابن العاص قال : [لا والذي بعث محمداً بالحق لا احمل فيه مسلما ابداً] وبذا تام مشروع غزو قبرس ولكن الى حين .

ذلك ان معاوية عاد الى الالحاح عند الخليفة عثمان ، ولكن الخليفة الجديد بما طبع عليه من تردد — لم يشأ ان يقطع في الموضوع برأي حاسم ، فقد خاف أن يخالف رأي عمر من جهة ، كما خشي ان يعرض ارواح المسلمين للخطر من جهة اخرى [٤] ولكن معاوية لم ييأس ، اذ كان يعلم ان عثمان غير عمر وان الخليفة الجديد لين العريكة ، سهل التأثير فيه فأخذ يلحف في طلبه حتى اذعن الخليفة في نهاية الامر

[١] هل : ص ٢٨٣ [٢] ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٧٣ ، الطبري ج ١ ص ٢٨٢٠ (طبعات ليدن)
« ٣ » ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٧٣ ، الطبري ج ١ ص ٢٨٢٠ [طبعات ليدن]
« ٤ » البلاذري : فتوح البلدان ص ١٥٣ — ١٥٤

. ثم كان ان اعد معاويه عدته وخرجت الحملة الاسلامية ضمت عكا لغزو قبرس سنة ٦٤٨ م [٢٨ هجـ] واشترك فيها فريق من اهل مصر العارفين بشؤون البحر تحت قيادة عبد الله بن سعد بن ابي سرح [١] ويبدو ان الاقبال على تلك الغزوة كان اشد مما كان يتصوره الخليفة عثمان ، وحسبنا انه قد اشترك فيها نفر كبير من الصحابة منهم ابوذر الغفاري وعباده بن الصامت ، ومعه زوجته ام حرام ، وابو الدرداء وشداد بن اوس .... [٢]

وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد السفن الاسلامية في تلك الغزوة الاولى ، فقدرها بعض المؤرخين الاغريق بسبعمائة سفينة ، وقدرها الاستاذ لانج بمائة وسبعة عشر ، على حين ذهب الاستاذ [هل] الى القول بأنها كانت الف وسبعمائة قطعة . اما المراجع الاسلامية فلم تتعرض لمشكلة العدد في ذلك الاسطول الاسلامي الاول بكلمة . وكيفما كان الامر فقد وصلت تلك الحملة الى قبرس سالمة ، وطلب معاوية من اهلها التسليم ودفع الجزية ، فلما رفضوا زحف عليهم المسلمون واستولوا على مدينة قنسطانطيا واستولوا عليها حتى اضطر اهلها الى طلب الصلح وعندئذ صالحهم معاوية على شروط اهمها ان يدفع القبارسة جزية سنوية للمسلمين مقدارها سبعة آلاف دينار ، على ان يدفعوا مثلها للدولة البيزنطية ولا يمنعهم المسلمون عن ذلك ، وان يكونوا طريق المسلمين الى العدو « الدولة البيزنطية » عن طريق قبرس ، وان ينبه القبارسة المسلمين في حالة تجهز البيزنطيين للاغارة عليهم .

وبعد عقد ذلك الصلح قفل معاوية راجعا الى بلاد الشام ويقال انه عند خروج المسلمين مسرعين من الجزيرة سقطت ام حرام بنت ملحان زوجة عباده بن الصامت عن ظهر بغلة كانت تركبها فماتت لساعتها ودفنت بالجزيره ، وما زال قبرها قائما بقبرس حتى الآن يعظمه مسلمو الجزيرة ويسمونه قبر المرأة الصالحة .

هذه هي غزوة معاوية الاولى لقبرس ، ومع ان المسلمين كما يبدو من الشروط السابقة لم يعملوا في تلك الغزوة على

« ١ » الطبري : تاريخ الامم والملوك ج ١ ص ٢٨٢٦
« ٣ » الطبري : ابن الاثير ، البلاذري .